خيرية قاسمية*

المذكرات والسير الذاتية كمصدر لتاريخ فلسطين في القرن العشرين**

مع أن الاتجاه الغالب في كتابة التاريخ في حياتنا المعاصرة أخذ يميل نحو الجماعية، ويقلل من دور الفرد في الحياة، إلاّ إن المجتمع والفرد لا يمكن فصلهما، وهما مكملان أحدهما للآخر. فالإنسان لا يعمل في الفراغ، ولا يعيش في معزل عن البيئة التي تحيط به، وإنما يعمل في السياق وتحت واقع مجتمع ماض. وتظل للتجربة الفردية حين تسجل في مذكرات أو سير ذاتية قيمتها. إذ إنها، بالإضافة إلى الحديث عن النفس وخباياها، لا تفصل الفرد عن المجتمع الذي يرتبط به ويتفاعل معه، وإنما تعرضه في نطاق المجتمع الذي عاش فيه، وتعرض أعماله وتجاربه متصلة بالأحداث العامة، أو منعكسة فيها، أو متأثرة بها. وتشكل السير والمذكرات التي تتناول أفراداً مهمين، لما كان لهم من ميزة تاريخية وفردية، مادة أساسية لدراسة التاريخ. حتى إن البعض يقول إن التاريخ ليس إلاّ سير شخصيات، أو مجموعة من شهادات أبناء عصر من العصور رأى كل منهم جانباً من الأحداث فسجلها وتناقلتها الأخبار، ثم يأتي بعد ذلك المؤرخون بأساليبهم العلمية ليكملوا فسيفساء الصور المجتمعة.

وأساس المذكرات والسير الذاتية هو الإنسان وشخصيته وتجاربه، وهي مرآة لصاحبها تعكس الأحداث، وتصبح شخصيته قطباً تلتقي عنده الشخصيات الأُخرى. وتنطلق أحياناً من الإيمان بأن الفرد هو الذي يكيف الأحداث، ويرسم الخطط، ويقوم بالتفكير والتنفيذ. مع ذلك، وعلى الرغم من أهمية المذكرات والسير الذاتية، فإن غلبة الطابع الشخصي أو الذاتي فيها، تحيطها التحفظات نفسها التي تواجه دور الشخصيات في التاريخ ودراسة دوافعها وظروفها ومؤهلاتها وأساليبها ومنجزاتها الرئيسية ومدى تأثيرها، وخصوصاً أن صاحب المذكرات، أو كاتب السيرة، هو وحده المسؤول عما تحويه مذكراته وسيرته من وقائع وآراء قد لا تتفق مع ما يحمله آخرون من آراء وما يعتقدون أنه وقائع. وتتحدد قيمة ما يكتب بناء على معايير عامة، أهمها بعده عن التحيز ومطابقة ما يكتب للواقع والحقيقة التاريخية بقدر المستطاع، مع استحالة الموضوعية المطلقة، لأن كتّاب السيرة والمذكرات يتأثرون باتجاه معين، ويحاولون إخضاع الموضوع لرؤيتهم المحددة.

كما أن لدى صاحب المذكرات والسيرة دوافع تجعله يبقي بعض التفصيلات في طي الكتمان حماية لسمعته الشخصية أو لسمعة من حوله. وقد يصعب على من يكتب عن نفسه أن يحسن التجرد وألاّ ينساق مع غرور النفس، والتعلق بالذات، والفخر الفردي القائم على تعداد المآثر في الذات، وتحاشي الأخطاء والعيوب، أو الاعتذار عنها وتبريرها. وقد يتفاوت البعض في الإعجاب بالنفس، إلاّ إن "الأنا" حاضرة مقنعة أو مكشوفة. ومعنى ذلك أن الماضي شيء لا يمكن استرجاعه على حاله، ولا مناص من تغييره بوعي أو من غير وعي. وقد يحول دون إيراد الحقيقة كاملة النسيان الطبيعي، أو النسيان المتعمد بحكم عملية الاختيار في التذكر. فالذاكرة لا تنسى فحسب، بل تميل أيضاً إلى تجميل الواقع وتبريج الحقيقة، وتغلف الأشياء الماضية بالرتوش المصطنعة. لذلك فإن إعطاء الحقيقة كاملة في المذكرات والسير يلحق بالمستحيل؛ أي أن الصدق فيها محاولة وليس أمراً متحققاً.

مع سلامة التحفظات السابقة كلها فإن السير الذاتية والمذكرات، بمجموعها، تعطي التاريخ شهادة من شارك في صنع الحدث بشكل أو بآخر. فهي ليست حديثاً ساذجاً عن النفس لملء الفراغ، بل دوّن أصحابها بعض جوانب حية من تجاربهم بغرض نقل التجربة إلى الآخرين وتوضيح مواقفهم من الأحداث التي سمحت الأوضاع لهم بأن يطلعوا عليها، أو يعايشوها، كما فهموها أو أحسوا بها. وفي كتاباتهم لا يتحدثون عن أنفسهم وعن تجاربهم الذاتية التي تخصّهم وحدهم، بل هي تختلط بالأحداث العامة وتتجاوب معها. وهنا تكمن الميزة الخاصة لهذه الكتابات لأن كتّابها أو مؤلفيها لم يكتفوا برصد تجاربهم على نحو معزول، وإنما جعلوا من هذه التجارب مدخلاً إلى الحياة العامة، واستطاعوا أن يغوصوا إلى تفصيلات ذات نكهة خاصة، تحوي الجانب الإنساني وتعطي التاريخ لوناً من الألفة والمباشرية لا يتوفر في كتب التاريخ العادية وفي الوثائق والتقارير الرسمية، ولا يمكن تجسيده إلاّ من خلال المعايشة الحية والمعاناة الشخصية.

أمّا الدوافع التي تدفع الفرد إلى كتابة مذكراته أو سيرته الذاتية فكثيرة: قد تكون أحياناً لدافع نفسي هو تخفيف العبء عنه وإراحته نفسياً لأنها تستند إلى الاعتراف. وقد يكون هذا العامل النفسي من أقوى البواعث للكاتب، وخصوصاً إذا ما اكتنفته أوضاع فيها مجال للأخذ والرد، فيكتب مذكراته أو سيرته منتحلاً ضروباً من التعليل والاعتذار والتبرير لما جرى من زاوية ذاتية تحاشياً للتقولات والاجتهاد، وتجنباً للمثل المألوفة والأعراف المكرسة. وقد يكون الدافع إيجاد رابطة ما بين كاتب السيرة أو المذكرات وبين القارئ، يحدثه عن دخائل نفسه وتجارب حياته، ويكشف له عن عالم يجهله، ويطلعه على أسراره وخباياه. وقد يكون الدافع أن لدى الكاتب كثيراً مما قد يعتبره تأريخاً يريد أن يضع بين يدي الجيل الجديد بعض المعلومات عن جيل مضى، وعما مر به من حوادث وأحداث ليسترشد بها ويسير على هديها. وقد تكون الكتابة عن الماضي بمثابة دفاع ضد آلام الحاضر، أو اقتناع كامل بواجب الإنسان في تسجيل الوقائع قبل اندثارها وضياعها، وإبقائها حية في النفوس.

وإنه من حق أي شعب على الذين تولوا الشؤون العامة، سياسية أو غير سياسية، واضطلعوا بمسؤوليات في المجتمع وشاركوا في معالجة قضاياه، أن يكاشفوه بالحقائق والوقائع، ويشرحوا التجارب التي اختبروها، وخلفيات الأوضاع التي اجتازوها، وأسرار وتفصيلات ما كان يجري، لأن هذا تراث للشعب كله. فالشخصيات العامة ليست ملكاً لمجموعة من الأفراد، وإنما هي ملك للبلد كله.

وعلى الرغم من كثرة ما ظهر ويظهر في عالمنا العربي من سير ومذكرات شخصية، فإن كتّاب الغرب يظلون أكثر اهتماماً بفن السير الذاتية والمذكرات. وقد يعود ذلك إلى أن عادة تسجيل المذكرات واليوميات لم تنل العناية الكافية، ولم تتأصل بعد في الكتابات العربية كما هو الأمر في الكتابات الغربية. ومضى الحكام والمسؤولون والسياسيون والقادة من دون أن يسجلوا شيئاً، فأخطأوا في حق شعوبهم وفي حق عملهم السياسي وفي حق مسؤولياتهم. وقد يكون العامل الأساسي في امتناع هؤلاء من التسجيل خلال فترات الوجود الأجنبي، أو الاحتفاظ بأوراقهم الشخصية كما يفعل أقرانهم في البلاد الأجنبية، أن الحياة السياسية كانت غير مستقرة كي تشجع على الكتابة. وحين تصدوا للكتابة كان ذلك عند غروب شمسهم بعد أن هدأت الأحوال وزحمة العمل، وأصبح بعضهم يعاني المرارة التي يخلفها المرض، والشعور بتغير الناس وتنكر الأهل والأصدقاء.

بالنسبة إلى فلسطين، مع الأخذ بعين الاعتبار الوضع الذي تنفرد به هي وشعبها، فإن المذكرات والسير الذاتية للأشخاص الذين اشتغلوا بالحياة العامة تبدو أكثر إلحاحاً، وتستحق أن تُعتمد لفهم تاريخ فلسطين خلال القرن الذي مضى، وتساهم في إلقاء بعض الضوء على فهمنا لهذا التاريخ في تناوله الزوايا السياسية والاجتماعية

وطبيعة الحياة اليومية، ولا سيما أن هذا التاريخ محاط بأوضاع تجعله عرضة للنقص والخطأ والتحيز وتشويه الحقائق وقلب المبادئ. بالإضافة إلى ذلك، تصطدم الكتابة في تاريخ فلسطين وحضارتها ومعالجة قضيتها، بمختلف مراحلها، بكثير من العقبات: أولها نقص الوثائق والمصادر الأولية وتشتتها وتهديدها بالضياع، إن لم يكن قد ضاعت، أو التسرب إلى أيد غير أمينة، إلى حد يجعل الأوراق والوثائق الأجنبية مصادرنا الوحيدة، تخفي ما تشاء، وتظهر ما تشاء، وتحاول أن ترسم صورة ولو كانت غير حقيقية.

إن الجهود التي تبذل للحصول على المذكرات والسير الذاتية لأولئك الذين كان لهم أدوار مهمة في الأحداث، وعاصروها، واختبروها يوماً بعد يوم، وشاركوا في تحمل ويلاتها، على الرغم من أن هؤلاء ظلمهم الجيل الحالي، هي جزء من الحفاظ على التراث القومي، لأنه نوع من توثيق الوجود وتأكيده على أرض فلسطين تجاه التهديد الحاضر. ومن المؤسف أن شخصيات فلسطينية كثيرة أدت دوراً متميزاً في الأحداث المتجددة والناشطة حولها سكتت أقلامها عن تسجيل تجاربها حين حدوثها، وعن إبداء الرأي، وطوى الأجل معظمها من دون أن تخلف لنا أية مدوّنات. وقد يعود ذلك إلى عدة عوامل: فخلال فترة الانتداب امتنع بعض تلك الشخصيات من التسجيل والتدوين بسبب الخوف من الاضطهاد والتفتيش والملاحقة، وأتلف البعض الآخر أو مزق ما لديه من مذكرات وأوراق. وبعد الانتداب جاءت أوضاع التشتت والبعثرة والهجرة لتقضي على ما كانت تلك الشخصيات تحتفظ به من كتابات ومدوّنات، وما يتصل بها من وثائق أساسية تكشف أسرار تاريخنا وتضيء مختلف جوانبه. وقد أحجمت قلة عن إبداء الرأي فيما كان يثير النقد والغضب والانتقام.

مع ذلك ظهرت في العقود الأخيرة من القرن العشرين وفرة من السير الذاتية والمذكرات الفلسطينية بعد أن قوي الميل لدى بعض الشخصيات، على الرغم من قلتها، والتي تقيم على امتداد الوطن العربي أو خارجه، إلى كتابة مذكراتها وتسجيل سيرها الذاتية، ودونت فيها جوانب حية من تجاربها خلال فترات الأحداث المثيرة. ويمكن القول، بوجه عام، إن هذه الشخصيات غير عادية، مع أنه لا يجوز الاستخفاف بالشخصيات الثانوية، بل هي شخصيات مرموقة في مجال عملها، أو تميزت في حقول مؤهلاتها، وحياتها ليست راكدة أو صامتة، حظيت بمنزلة خاصة في المجتمع لمشاركتها في الأحداث الدائرة حولها وتأثيرها بها أو لتركها أثراً في إحداث تغيير أو اتخاذ قرار. ويظهر من سيرها الذاتية ومذكراتها جوانب كثيرة مطموسة أو يكتنفها التعتيم، وترتبط بحياة الشعب وتراثه. وبعض تلك الشخصيات كان على مستوى الأحداث، ونجح في القيام بأدوار قيادية لجمعه مؤهلات الزعامة من موهبة واجتهاد وأوضاع. وبعضها الآخر افتقر إلى المزايا التي تتطلبها الزعامة، ولم يكن له تأثير كبير في تشكيل السياسة أو صناعتها. وقد أتيح لكثير من تلك الشخصيات الوصول إلى التعلم، على الرغم من التفاوت في مستوى هذا التعلم، بفضل المكانة والثروة السابقتين لعائلاتها خلال مرحلة الانتداب، أو بسبب الأوضاع وإقبال الفلسطينيين على التعلم بعد الانتداب. وكانت بذلك أفضل حالاً من جموع الفلسطينيين، أو من فئات أُخرى، كالعمال والفلاحين، أدت أدواراً مهمة لكنها ظلت صامتة لأنه لم تتوفر لها القدرة والإمكانات لتسجيل تجاربها الذاتية.

والدراسة المقدمة ليست مسحاً لكل ما دُوّن من مذكرات شخصية وسير ذاتية، وإنما تم اختيار ما طبع ونشر منها في كتب، وليست بالضرورة لأولئك الذين يستحقون الاهتمام الأكبر لتميزهم أو لقيمة ما دونوه علمياً وموضوعياً، بل تلك التي أمكن الحصول عليها (باستثناء مذكرات الحاج أمين الحسيني التي لم تنشر في كتاب).* كما استبعدت الدراسة مذكرات وسير الذين أدوا أدواراً مهمة في تاريخ فلسطين من عرب غير فلسطينيين (باستثناء عنبرة سلام الخالدي، وفوزي القاوقجي)، وكذلك استبعدت مذكرات الأجانب المعنيين بموضوع فلسطين. ولا تتناول هذه

الدراسة المذكرات والأوراق غير المنشورة والتي لا يزال أصحابها أو ذووهم يحتفظون بها، أو هي في حيازة المهتمين بجمع الوثائق والأوراق (مثل أوراق روحي الخالدي، وعبد الله مخلص.(

والملاحَظ أن التاريخ السياسي استغرق معظم تلك الكتب (مذكرات وسير ذاتية) ولم يُكتب إلاّ القليل عن أمور غير سياسية، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية والشواغل اليومية. ومثال ذلك ما سجله خليل السكاكيني في يومياته التي تقدم صورة مثيرة لكثير من مظاهر الحياة في فلسطين خلال حقبة ممتدة من أواخر العهد العثماني حتى النكبة سنة 1948. وتروي مذكرات حسني صالح الخفش خفايا الحركة العمالية في فلسطين خلال الانتداب. وتعطي مذكرات الشخصيات الثانوية (مثل كنعان أبو خضرا، وإبراهيم خليل سكيك) وجهة نظر ممتعة تماماً، كأوراق الزعماء السياسيين. فيقدم أبو خضرا صورة حية للحياة اليومية في فلسطين، ويصف سكيك الأجواء والمشكلات التي واجهت شعب فلسطين.

قد تعطي المذكرات والسير المطبوعة، موضوع الدراسة، شريطاً كاملاً أو شبه كامل عن حياة صاحبها وتجاربه، وتتناول جميع الوقائع التي مرت بفلسطين خلال الفترة التي تناولتها المذكرات والسير (مثلاً مذكرات أحمد الشقيري). وقد اقتطع بعض أصحاب تلك المذكرات والسير حقبة معينة من حياتهم، أو تجربة معينة، سمحت الأوضاع للكاتب بأن يطلع عليها أو يعايشها كما فهمها أو أحس بها، وتقتصر روايته على الحوادث ذات التماس المباشر بها (مثال ذلك: أكرم زعيتر عن يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية 1935 – 1939، وذكريات معين بسيسو عن أعوام سجنه على أيدي السلطات المصرية في الخمسينيات، وأسعد عبد الرحمن عن عشرة أشهر في المعتقلات الإسرائيلية سنة 1967، وعبد الحميد شومان عن الأوضاع الاقتصادية والنضالية في فلسطين منذ حادثة البراق حتى نكبة 1948). يُرجع أكرم زعيتر هذا الاتجاه في مقدمة كتابه إلى أن "من يكتب يومياته أو مذكراته يُعنى بما اتصل به من الأحداث شخصياً، مشاهدة أو إسهاماً أو تعليقاً، فلا تثريب عليه في الحديث عن دوره وهواجسه لأن ذلك لزام محتوم لكل يوميات أو مذكرات." وكثيرون من أصحاب المذكرات والسير الذاتية سجلوها بأنفسهم، ومنهم من استعان بأصدقاء وصحافيين فعكسوا فيها بعض آرائهم: مثلاً مذكرات مفتي فلسطين التي نشرت في مجلة الهيئة العربية العليا "فلسطين" في 75 حلقة بين سنة 1967 وسنة 1975، وكان المفتي قد أملاها على عدد من أعوانه؛ ومذكرات صلاح خلف (أبو إياد) وهي سلسلة لقاءات مع الكاتب الفرنسي إريك رولو؛ ومذكرات ليلى خالد التي روتها لجورج حجار.

ويتفاوت أسلوب المذكرات والسير موضوع الدراسة. فبعضها اقتصر على تصوير الأحداث بدقة متناهية وإبراز الحقائق عارية، وليس تصوير الذات (مثل عزت طنوس، وإميل الغوري، وحسني صالح الخفش). في حين أنشأ آخرون تعاطفاً بينهم وبين القارئ، وليس على شكل صور خارجية، بأسلوب فني حيوي وإحساس دقيق بالأحداث والتجارب والشخصيات. وبلغ الشقيري الأوج في كتابة مذكراته بأسلوب يثير حب الاستطلاع والتشويق ويبعث الحركة والحياة، ويتفنن في إظهار مقدرته الأسلوبية، بالمزج بين الميل القصصي والسرد التاريخي مع رزانة الأسلوب ورجاحته. وأخرجت فدوى طوقان في سيرتها قصة ممتعة سلسة محكمة النسج، يتميز أسلوبها بالقوة والأصالة والجمال والحيوية العامرة باللفتات الدقيقة. وقدّم بعض الكتّاب مجموعة أخبار أو مشاهدات متفرقة تفتقر إلى وحدة البناء، ويعوزها العمق والتحليل، ولا ترتفع عن اللغة الدارجة إلاّ قليلاً (مثل إحسان النمر، ومحمد طارق الإفريقي). وكثيرون من أصحاب الكتب موضوع الدراسة وقعوا في الاستطراد إذ يتركون الحديث عن تجاربهم ليتحدثوا في التاريخ والأحداث والآراء التي سمعوها أو قرأوها (مثلاً عزت طنوس). وأحياناً يقفزون بسرعة عبر السنين، وتتكاثف أمامهم الصور، وتتدافع الحوادث وتتشابك فيرد ذكرها تبعاً لسردها الموضوعي لا تبعاً لموقعها الزمني (مثلاً محمد علي الطاهر، وعنبرة سلام الخالدي). وأحياناً يقعون في خطأ التكرار، أو الدقة المتطرفة إلى حد

السأم والملل (الطاهر وسكيك)، وقد يفتقرون إلى الترابط في السرد (النمر)، ويتجه آخرون نحو الوعظ وتسيطر عليهم العاطفة (زعيتر)، وبعضهم كتب تحت وطأة شعور خاص بأن أي شيء من الذكريات يكتبه صاحبه يفيد (أبو خضرا).

ما ذكر سابقاً من تحفظات تجاه السير والمذكرات الشخصية بوجه عام ينطبق على تلك الخاصة بفلسطين. فكثيرون من الذين دونوا لم تكن لديهم ملاحظات أو يوميات أو سجلات يعتمدون عليها، فكان ما كتبوه تجميعاً لذكريات ووقائع قديمة اختزنوها في الذاكرة، ثم قاموا باستعراضها بعد أن مضى بعض الوقت عليها. ولأن الذاكرة وحدها هي المصدر الوحيد، ومع أن بعضهم تمتع بذاكرة متوقدة، إلاّ إنها كانت تخونهم أحياناً، وفوّت عليهم تراخي الزمن ذكر أمور مهمة وهم يسجلون (مثلاً عارف العارف). أو قد يقول أصحاب المذكرات والسير الشخصية رأيهم وموقعهم بعد مضي فترة من الزمن (مثلاً عوني عبد الهادي). وهذه الحقيقة تُفقد المذكرات والسير الشخصية كثيراً من الأهمية، إذ ليس هذا ما يحتاج المؤرخ إليه؛ فهو يطلب من صاحب المذكرات والسير الشخصية أن يعطي الآراء والأحكام وقت وقوع الأحداث. ويلاحَظ أن شخصيات كثيرة عمدت إلى كتابة مذكراتها وسيرها في وقت متأخر، فعجزت عن المواصلة والاستكمال وكتابة السيرة والمذكرات في وحدة متكاملة. ولا يضاهي أحمد الشقيري أيُّ سياسي آخر في تقديم مذكرات كاملة. وثمة شخصيات عمدت إلى تسجيل مذكراتها أو حقبة من حياتها في سن مبكرة نسبياً، وفوّت عليها ذلك أموراً قبل أن تتضح نتائجها (أبو إياد مثلاً). ويتفاوت أصحاب المذكرات والسير في إعجابهم بأنفسهم، بما حققوه من مجد أو غاية يسعون إليها، كما أنهم يتحاشون الأخطاء والعيوب أو يعتذرون عنها إذا اضطروا إلى ذكرها ويبالغون في التبرير والاعتذار (مثلاً المفتي يبرر موقفه من دول المحور). وقد يغرق البعض في أمور شخصية (مثال ذلك الشقيري واتهاماته الخفية للمجلسيين، في حين يشيد الغوري بهم).

ولا يمكن أن تستكمل دراسة المذكرات والسير الذاتية إلاّ بالاطلاع على كل المؤلفات المطبوعة والمنشورة لأصحابها التي لم تتضمنها المذكرات والسير الذاتية، وكذلك ما كتب عنهم، إضافة إلى خطبهم ومحاضراتهم ومقالاتهم وأبحاثهم في الصحف والمجلات، وكذلك كتابة ومناقشة بعض القضايا التي كان لأصحاب المذكرات والسير الذاتية ضلع فيها. كما يجب أن يرافق دراسة المذكرات والسير الذاتية إجراء مقابلات متعددة مع الذين عايشوا أصحاب المذكرات والسير أو مع أهلهم، والاستعانة بأوراق ومعلومات ورسائل وشواهد وشهادات لم تتضمنها السير والمذكرات الشخصية. وهناك مسؤولية خاصة تقع على عاتق الأُسر والأفراد الذين ورثوا بعض المذكرات والسير الذاتية التي لها أهمية تاريخية، وذلك بأن يسلموها للأجهزة والمؤسسات المختصة لنشرها، وألاّ يخافوا من بعض ما جاء فيها على سمعة أصحابها، قبل أن تصبح قليلة الجدوى في الكشف عن الجوانب التي تناولتها.

في هذه الدراسة قسّمت الشخصيات أصحاب السير والمذكرات الذاتية إلى ثلاث فئات رئيسية* استناداً إلى اتجاهاتها وأساليب عملها: الفئة الأولى من رجال السياسة (عوني عبد الهادي، محمد عزة دروزة، عزت طنوس، محمد أمين الحسيني، موسى العلمي، إميل الغوري، أحمد الشقيري، أكرم زعيتر، شفيق الحوت)؛ الفئة الثانية من أصحاب القلم والعمل (خليل السكاكيني، عبد الحميد شومان، عارف العارف، محمد علي الطاهر، عنبرة سلام الخالدي، إحسان النمر، خليل البديري، حسني صالح الخفش، فدوى طوقان، إبراهيم خليل سكيك، كنعان أبو خضرا، يعقوب زيادين، معين بسيسو، هشام شرابي، فواز تركي، أسعد عبد الرحمن)؛ الفئة الثالثة من دعاة النضال المسلح فكراً وممارسة (محمد طارق الإفريقي، فوزي القاوقجي، صلاح خلف "أبو إياد"، ليلى الخالدي). وقد تداخلت هذه الفئات بعضها ببعض، بمعنى أن تجمع شخصية منها صفتين أو أكثر. لكن جرى هذا التصنيف بحسب الميزة التي غلبت على أفرادها وعرفوا بها. وقد اتُبع في معالجة ودراسة المذكرات والسير الذاتية، التي أمكن الحصول عليها، خطوتان: الأولى التعريف بصاحب السيرة أو المذكرات الشخصية، واستعراض حياته بإيجاز، مع تقويم عام

لمنجزاته ونشاطه ودوره في الأحداث. والغرض ليس تقديم ترجمة تفصيلية لحياته، وإنما الربط بين الصورة الداخلية وبين الأحداث والأوضاع التي كان له دور فيها أو صلة بها. والخطوة الثانية هي التعريف بالمذكرات أو السيرة الذاتية، وشرح طريقتها وأسلوبها، وعرض أهم الأفكار الواردة فيها والزوايا التي تكشفها من التاريخ الفلسطيني.

وقد تم انتقاء نموذج من كل فئة وتقديم نبذة عن حياته ولمحة عن مذكراته أو سيرته المطبوعة، من دون أن يقصد من انتقائه أن يكون متميزاً في فئته، أو ممثلاً لها.

أولاً: نموذج من الفئة الأولى

(رجال السياسة)

موسى العلمي (1897 – 1984)، "Palestine is my Home فلسطين هي وطني"، (قصة موسى العلمي كما رواها لجيوفري فيرلونج.(Geoffrey Furlonege/

ولد موسى العلمي في القدس من أسرة ذات نفوذ. وكان والده فيضي العلمي برز في الإدارة العثمانية، وتدرج ليصبح رئيساً لبلدية القدس، ثم أحد ثلاثة نواب في مجلس المبعوثان عن متصرفية القدس. وعى موسى أحداث فلسطين في نهاية الفترة العثمانية، وتلقى دراسته في القانون في جامعة كمبردج في إنكلترا، وشغل منصب المدعي العام في فلسطين خلال الثلاثينيات. ومع أنه كان يمتنع في البداية من الخوض في السياسة، إلاّ إن التطورات في فلسطين خلال فترة الانتداب قادته إليها. لم ينتم إلى حزب معين، فكان موضع ثقة ومحل معارضة في الوقت نفسه. لكن الجميع اتفق على تقدير كفاءته. تولىّ مهمات صعبة في مسيرة الحركة الوطنية على الصعيد الخارجي، وخصوصاً ما كان له صلة بالمفاوضات مع بريطانيا ومع الأجهزة العربية. وبعد نكبة 1948 كان له عدة تصورات وممارسات لمعالجة الأوضاع التي حلت بشعب فلسطين، تتميز بالطابع الفردي ولا تتفق في مجموعها مع الجهود العربية التي كانت تبذل لمواجهة الوضع الناجم عن كارثة 1948.

أدلى موسى العلمي بخبراته وتجاربه، التي تمتد عبر حقبة زمنية طويلة، منذ الأعوام القليلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى وحتى أحداث سنة 1967، إلى صديق بريطاني هو جيوفري فيرلونج، الذي عمل على نقل سيرة العلمي الذاتية والتعبير عن مشاعره وأفكاره، إلاّ إنه كان يضفي عليها أحياناً بعض آرائه الخاصة، كما يعرض تطورات في فلسطين والمنطقة العربية لم يكن العلمي على علاقة مباشرة بها. تغطي سيرة العلمي مراحل متعددة من حياته، تبدأ بالعهد العثماني إذ تقدم صوراً متناثرة للمجتمع الفلسطيني أواخر ذلك العهد، مع ملامح من نظام الحكم والإدارة في تلك الفترة، من خلال الحديث عن جيل والده فيضي العلمي. وخلال وجوده في دمشق أواخر الحرب العالمية الأولى، توضحت له تطورات الحركة العربية. وقدمت سيرة العلمي بعض الآراء والانطباعات عن حقائق الوضع في فلسطين خلال مراحل الانتداب البريطاني، ولا سيما بعد عودته من الدراسة في إنكلترا أواسط عشرينيات القرن العشرين. وعلى الرغم من إعجابه بالجهود الإدارية البريطانية، فإنه كان يشكك في أهداف الانتداب لإحساسه بقوة الحركة الصهيونية. وخلال الفترة 1925 – 1928 كان يرى النار كامنة تحت الرماد؛ فالمجتمعان العربي واليهودي يتطوران بشكل منفصل، وحالة الفلاحين تزداد سوءاً، والموقف الصهيوني يزداد تشدداً، كما أن السياسة البريطانية المحابية للصهيونية في نظره ستؤدي حتماً إلى تفجر الصراع.

في مطلع الثلاثينيات، تقرّب واكهوب المندوب السامي البريطاني من العلمي، بعد أن لفتت نظره حدة ذكائه واستقلالية حكمه، وأدرك أن العلمي الذي يملك مزيجاً فريداً من الصلات الواسعة في العالم العربي، وعقلية كمبردج المدربة على مهنة المحاماة، يمكن أن يصبح مترجماً للآراء والمشاعر العربية. وازدادت الحملة الصهيونية عليه بعد أن أصبح أحد سكرتيري واكهوب الخاصين، مع مسؤولية خاصة لاستشارته في المسائل العربية. لذا قام واكهوب بإسناد مهمات أُخرى إلى العلمي. وتفرّد العلمي بين الزعامات الفلسطينية بلقاءات مع الصهيونيين كانت آخر مرحلة في تعرفه على طبيعة الصهيونية وأهدافها التي لا تكتفي بوطن قومي وإنما بالسيطرة الكاملة. موقف العلمي من أحداث 1936 لم يكن واضحاً في بداية الأمر؛ فهو بحكم منصبه كان عليه أن يساعد في وضع حد لتلك الأحداث. ولأن بريطانيا لم تستجب للمطالب العربية فكّر مراراً في الاستقالة, لكنه عدل عن ذلك لأنه يستطيع خدمة الشعب بالعمل كصلة وصل بينه وبين بريطانيا. وبمبادرة شخصية منه صاغ الموظفون الحكوميون من العرب مذكرة كانت لهجتها معتدلة لكنها أوضحت أن العرب دُفعوا إلى اليأس لفقدانهم الثقة بالوعود والتأكيدات الرسمية. وألحقت اللجنة الملكية المذكرة بتقريرها, لكن بالنسبة إلى العلمي كانت مؤشراً إلى خروجه من العمل الحكومي. وانتقد العلمي الشهادات العربية أمام اللجنة الملكية لأنها تعاني من جرّاء الإعداد السريع وعدم القدرة على التمييز بين الحجج التي توافق العرب وبين تلك التي يمكن أن تؤثر في أعضاء اللجنة. لذا لم يستغرب ما حواه تقرير اللجنة الملكية من أحكام مغلوط فيها, ومنها ما يمسه شخصياً؛ إذ أوصت اللجنة بتعيين مدعٍ بريطاني بدل العلمي.

وعلى الرغم من ابتعاد العلمي عن السياسة، وسوء صلاته بأعضاء اللجنة العربية العليا, فقد كلّفه جمال الحسيني (زوج شقيقته) استطلاع موقف الحكومة البريطانية تمهيداً لعقد مؤتمر لندن سنة 1939. وقد تعرف وزير المستعمرات، مالكولم مكدونالد، من العلمي على الموقف العربي وإمكان حضور العرب وإقناعهم بأن بريطانيا جادة. وحصل العلمي على توقيع مكدونالد لبروتوكول حددت بنوده غرض المؤتمر المقبل بإيجاد الوسائل لتحقيق استقلال فلسطين. وحمل العلمي نسخة عنه إلى لبنان لإطلاع المفتي وأعضاء اللجنة العربية العليا. اعتبرت الوفود العربية بعد اطلاعها على البروتوكول أن نصف المعركة قد رُبح سلفاً. ومع تقدم مباحثات لندن كان العلمي يزداد نقداً للعرب ولبريطانيا: للعرب لأنهم فشلوا في الحفاظ على جبهة موحدة, ولأنهم أخطأوا في تقديم قضيتهم وركزوا على قضايا جانبية. أمّا الجانب البريطاني، فقد كان مكدونالد, يقول العلمي، "يلعب لعبة مزدوجة بحيث أن الأمور التي تم الاتفاق عليها لم تبق كذلك مع ازدياد الضغط الصهيوني." ومن وجهة نظر العلمي أن الكتاب الأبيض الذي فرضته الحكومة البريطانية، من دون الأخذ في الاعتبار اعتراضات العرب واليهود, حقق للعرب مطالب لم يحصلوا عليها في السابق بشأن تحديد الهجرة وانتقال الأراضي. لكن من حيث الحكم الذاتي كان أدنى من تطلعاتهم. وكان العلمي أحد أصحاب الرأي القائل بأن الكتاب الأبيض يمثل اعترافاً لأول مرة بقوة القضية العربية، ويمكن أن يكون أساساً لمناقشات تالية.

وقد شغلت محاضر المؤتمر التحضيري للوحدة العربية في الإسكندرية سنة 1944 حيزاً كبيراً في مذكرات العلمي. فقد اتفق زعماء الأحزاب في فلسطين على اختيار العلمي ليمثلهم في المحادثات العربية، وذلك لمؤهلاته ولعدم انتمائه إلى أي حزب. وعلى الرغم من التدخل البريطاني للوقوف في وجه مهمته لتمثيل فلسطين فإنه نجح في مساعيه لدى الملك فاروق، ولدى الضابط السياسي المسؤول عن الشؤون العربية في مقر الوزير البريطاني المفوض في الشرق الأوسط في القاهرة. وكان أداء العلمي خلال المؤتمر رائعاً، وقدم اقتراحين بنّاءين لمواجهة التهديد في فلسطين: الأول توجيه الجهد الرئيسي إلى حقل الإعلام لتقديم القضية العربية بشكل مواز للدعاية الصهيونية، لا للحكومة البريطانية، وإنما للشعب البريطاني ولكل أمم العالم الكبرى. وتلخص اقتراح العلمي الثاني بأن تنشئ الدول العربية صندوقاً لتحسين أوضاع الفلاحين العرب والتخفيف عن الملاّك الصغار الذين يخشون حجز المقرضين على أراضيهم المرهونة. ووفقاً للاقتراحين تقرر تأسيس مكاتب عربية في كل العواصم العالمية المهمة

لتولي الدعاية للقضية العربية، وكذلك إنشاء صندوق لمساعدة الفلاحين الفلسطينيين. وقد صادق مؤتمر القاهرة (مع صدور ميثاق جامعة الدول العربية) في آذار/مارس 1945 على المكاتب الإعلامية، وكُلّف العلمي مهمة تنظيمها. كما درست اللجنة الاقتصادية لجامعة الدول العربية فكرة مساعدة الفلاحين وأوصت بتشكيل جمعية (المشروع الإنشائي العربي). وأخذ العلمي يعمل بكل طاقته وجهده لتنفيذ القرارين، في وجه صعوبات وإحباطات كثيرة. وكان نجاحه في المهمتين محدوداً: ففي المهمة الأولى (المشروع الإنشائي) حدد نقص الموارد مجال العمل. أمّا المهمة الثانية فيقر العلمي بـ "أن عمل المكاتب لم يكن كافياً بل جاء متأخراً".

ظل العلمي نشيطاً بعد سنة 1946 في بذل جهود دبلوماسية أُخرى، على الرغم من عدم تكليفه رسمياً من الهيئة العربية العليا. وكانت وجهة نظره أن كل الصيغ البريطانية المطروحة غير مجدية ما دام البريطانيون مستمرين في إنكار المبدأ الأساسي، وهو أن فلسطين للعرب. لكنه كان لا يزال متمسكاً باعتقاده أن حس البريطانيين بالعدل سيجبرهم في النهاية على قبوله كحقيقة.

خذل قرار بريطانيا الحاسم بإعلان الانسحاب وعرض القضية الفلسطينية على الجمعية العامة كل توقعات العلمي. ونجح الصهيونيون في تعطيل عمل المكتب العربي في واشنطن. وبعد عودة العلمي إلى فلسطين أواخر سنة 1947 كانت الأوضاع تزيد في مخاوفه: الاستعداد اليهودي، وضعف الموقف العربي. وفي شباط/فبراير 1948 قام بجولة في العواصم العربية للتعرف على مدى المساعدة العربية الممكنة، وعاد من الرحلة مكتئباً وأكثر إدراكاً لمدى قوة اليهود ولمدى الجهد العربي اللازم للسيطرة عليهم. وأصبح على يقين من أن الجيوش العربية، وإن كانت أكثر عدداً وتجهيزاً فإنها أدنى في التنظيم والقيادة والروح القتالية، وتوصل إلى نتيجة واحدة هي أن العرب سيفقدون فلسطين. وشعر بأنه فقد القدرة على عمل شيء لشعبه، وتحولت أفكاره بشكل غير واع نحو المرحلة التالية – إلى النكبة التي شعر بأنها ستقع حتماً، وإلى السبل التي يمكنه أن يساهم بها.

بعد النكبة كان الوضع بالغ الصعوبة. لكن العلمي كان مقتنعاً بضرورة استخدام قوته ومواهبه والأموال التي لديه لتخفيف مأساة اللاجئين، وذلك في غرض بنّاء يكون له أثر دائم. وكان المسرح السياسي بعد عودته إلى القدس في صيف سنة 1948 مضطرباً، وبدأ جيل من الزعامة الجديدة المتعلمة يبحث عن حل لإعادة فلسطين بالاعتماد على جهد فلسطيني من دون عون عربي. وأصبح العلمي، رغماً عنه، محور اهتمام المتطلعين إلى القيام بعمل مباشر ضد إسرائيل. ولم يكن يشعر بتعاطف مع أي فئة، ويخشى أن ينتهي هؤلاء السياسيون الشباب، لو واجهتهم صعوبات عملية، إلى مجموعات متطرفة. لذا رفض طلب كل الذين توسلوا إليه، وأصبح هؤلاء الشباب، الذين شكّلوا مختلف الأحزاب، من أشد منتقديه.

وكان العلمي على ثقة تامة، كسائر الفلسطينيين، بأن الخروج من فلسطين هو عملية موقتة، إلاّ إن الأجانب الذين اتصل بهم كانوا كلهم واثقين باستحالة عودة اللاجئين، وأنه لا بد من تكوين حياة جديدة في مكان آخر. ولمواجهة مأساة ما يقرب من 70 – 80 ألف يتيم لا تنطبق عليهم شروط الأونروا في تقديم المساعدة، وضع مشروعه على الورق. وطلب من الحكومة الأردنية في مطلع سنة 1949 منحه أراضي بور في وادي الأردن قرب أريحا لإجراء تجارب زراعية من أجل المشروع. وبجهوده الذاتية تمكن من الحصول على المعدات والأموال. ومع أن المشروع لم يحقق هدفه في تعريف العالم بمأساة الأيتام اللاجئين، ولا في احتواء أعداد كثيرة منهم، إلاّ إن البداية المتواضعة مكّنت من تحويل عدد قليل من الأولاد إلى رجال مدربين على العمل، قادرين على ولوج معترك الحياة ليحل محلهم آخرون. وقد تفرغ العلمي للمشروع تفرغاً كاملاً صرفه عن الاهتمام بالقضايا السياسية. وجرى توسع في المشروع بعد سنة 1958 من خلال مِنَح ومساعدات من مؤسسات عربية وأجنبية ذات اهتمام بالشرق الأوسط، مع مساعدة

الحكومة الأردنية. وتحوّل المشروع من مغامرة غير ناضجة إلى عمل راسخ له رأس مال يذهب الربح فيه إلى تكاليف المشروع، كما أصبح مركز تدريب مهني. وفي حزيران/يونيو 1967 كان المشروع قد أصبح حقيقة قابلة للحياة، وكان العلمي حريصاً على إبقائه بعيداً عن السياسة.

كان العلمي في رحلة إلى أوروبا من أجل شراء معدات لبرنامج التوسع في مشروعه حين وقع عدوان 1967، فتجددت مأساة 1948 واقتحمت القوات الإسرائيلية المشروع وأحدثت فيه خراباً. وحاول العاملون مواجهة الكارثة الجديدة وهم يفتقرون إلى المال والمؤن. وبجهود موسى العلمي في الخارج أمكن تأمين المنح والمعونات وإيصال الأموال والمعدات من أجل إعادة البناء من جديد. وعاد العلمي بعد أشهر للإشراف على مشروعه داخل الأراضي المحتلة، لكنه اضطر إلى مغادرة الوطن وعاش متنقلاً حتى وفاته سنة 1984، ودفن في القدس.

ثانياً: نموذج من الفئة الثانية

(أصحاب القلم والعمل)

عنبرة سلام الخالدي (1898 – 1986)، "جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين."

تنتمي عنبرة سلام إلى أسرة معروفة في بيروت لها وزنها الاجتماعي والثقافي.

وقد ساهمت عنبرة في الحياة العامة الاجتماعية والأدبية بوجه خاص قبل أن تنتقل إلى القدس سنة 1929 زوجة لأحمد سامح الخالدي (مدير الكلية العربية). وتابعت مساهمتها الاجتماعية والأدبية في فلسطين، وعادت إلى وطنها الأول مع أسرتها بعد نكبة 1948. ومع أن عنبرة تولي الجانب الشخصي حيزاً كبيراً في ذكرياتها فتتحدث عن نشأتها وتربيتها وخلفيتها الاجتماعية وزواجها وأسرتها الجديدة، إلاّ إن هدفها لم يكن عرض سيرة ذاتية وإنما هي تعدّ ما كتبته تاريخاً لمعالم عصر عاشته بذاتها، وصورة حية لحوادث وأحداث اجتماعية وسياسية شهدتها بنفسها. وهي تقرّ في المقدمة بأنه قد يفوتها ذكر أمور مهمة مرت بها لأنها لم تلتزم في حياتها كتابة اليوميات التي كان في إمكانها الاستعانة بها، كما أن كثيراً من أوراقها الخاصة أتلفته عمداً حين سيق والدها مرتين إلى الديوان العرفي الذي أقامه الأتراك في عاليه لمحاكمة أحرار العرب، وفُقد بعضها الآخر بعد ذلك حينما كان الجيش الفرنسي أيام الانتداب يداهم بيتها ليفتش عن أوراق قد تدين والدها فيبعثر ويمزق ويأخذ ما يشاء. ثم ضاع كثير من أوراقها حينما تركتها في بيروت وذهبت لسكنى القدس بعد زواجها سنة 1929. وأتت الهجرة من القدس سنة 1948 لتقضي على البقية الباقية مما كانت تحتفظ به من أوراق شخصية مدة عشرين عاماً أمضتها في فلسطين.

كان هدفها من كتابة ذكرياتها كما تقول في المقدمة: "هو أن أضع بين يدي الأجيال الطالعة بعضاً من معلوماتي عن جيلنا وما مر به من حوادث وأحداث." وتقسم عنبرة كتاب ذكرياتها إلى عناوين كثيرة تبعاً لمحطات مهمة في حياتها لا وفقاً لفترات تاريخية عريضة. وما تذكره عنبرة عن حياتها الأولى في لبنان يعطي فكرة عن المجتمع العربي في مطلع القرن العشرين، لا تتميز به بيروت وحدها، بل يمكن أن ينطبق على ما سواها من مجتمعات مماثلة في تقاليدها الاجتماعية ووضع المرأة بوجه خاص. كما تروي بعض الأحداث السياسية في مرحلة يقظة الروح العربية، وتصور أوضاع بيروت البائسة خلال الحرب العالمية الأولى والنشاط ذا الطابع الإنساني. وتتحدث أيضاً عن مشاركتها الفعلية في النشاط الوطني، وخصوصاً في عهد فيصل، وعن اشتغال المرأة بوجه عام في

الحياة العامة الاجتماعية والثقافية خلال العشرينيات من القرن العشرين. وفي أثناء سردها أحداث مرحلة الانتداب تعرضت لموضوع امتياز الحولة (ولأسرتها علاقة به) والعراقيل الصهيونية في وجه إتمام المشروع.

وبزواجها من أحمد سامح الخالدي وانتقالها إلى فلسطين تبدأ مرحلة ثانية في ذكرياتها، تروي فيها دور المرأة الفلسطينية في النضال، وأجواء الحركة النسائية، وعمل المرأة في المجال الأدبي (وكان لها مساهمتها الشخصية بترجمة الإلياذة والأوديسة). ولمست في المرأة الفلسطينية تحمساً وطنياً حاراً يطبع الفلسطينيات بشخصية مميزة، فيها الاندفاع المخلص والتفهم الصحيح. وتعرض جوانب من السياسة البريطانية، وتبدي رأيها في لجان التحقيق التي لم تُرسل، تقول عنبرة، "إلاّ لتمضية الوقت والتسلية وليست لوضع سياسة راسخة لوطن يتمزق أو إزالة غبن فاحش عن قوم يستصرخون الأرض والسماء لمداواة هذا الداء المستشري الذي ابتلوا به." وتقول عنبرة، في تعليلها أسباب عجز العرب عن مواجهة القوى الصهيونية: "ولكن سوء حظ الفلسطينيين أنه كان عليهم أن يواجهوا عدواً يلجأ إلى كل وسيلة وإلى كل دعاية مضللة لكي يصل إلى مبتغاه. فكيف تقدر الدعاية العربية أن تصل إلى أهدافها وليس لديها من وسائلها إلاّ حقها الصريح المنكمش داخل حدود وطنها".

وتحكي عنبرة قصة الكلية العربية وبنائها ونمط الدراسة فيها وأهميتها بالنسبة إلى شباب فلسطين. وتشرح، تفصيلاً، أحد الإنجازات الاجتماعية والثقافية في فلسطين، وهو مدرسة دير عمرو (بإشراف مشروع لجنة اليتيم العربية، وكان زوجها وراء المشروع). وكان لعنبرة مساهمة فعلية في الرد على الدعايات الصهيونية من خلال توضيح القضية للأجانب ودحض الأباطيل. وقد خدمت عنبرة الدعاية للقضية العربية من خلال عضويتها في لجنة المراقبة على الأفلام في القدس.

وبمشاعر متدفقة تصف عنبرة حبها لوطنها الثاني فلسطين "لبلد أحببته كل الحب وأنزلته مكانة رفيعة من قلبي، وكنت أحسب أنه سيكون لي موطناً مدى الحياة." وتصف الآلام التي أصابتها "لما حلّ ببلدي الثاني فلسطين الغالية من ضرر وما وقع على أهلها من تشرد، وما تلاقيه في الأندية العربية من ظلم الأحكام وتحيّز الحكام، حتى سُدّت الأبواب في وجه الحقيقة، أو كادت، وحجب نور الحق عن الانبلاج أو أوشك".

ثالثاً: نموذج من الفئة الثالثة

(دعاة النضال المسلح فكراً وممارسة)

محمد طارق الأفريقي (1888 – 1955)، "المجاهدون في معارك فلسطين 1467هـ/1948م، مذكرات عن الحرب الفلسطينية: أربعون معركة وأسماء شهدائها وجرحاها."

المؤلف هو أحد المشاركين في معارك فلسطين 1948 (وهو من أصل نيجيري، خريج كلية حربية تركية، وكان رئيساً لأركان حرب الجيش السعودي سابقاً). عمل الأفريقي في "الجهاد المقدس" فكان مستشاراً حربياً لحسن سلامة في بداية سنة 1948، ثم كُلّف إنشاء جبهة المجدل في آذار/مارس 1948، والقيام بمهمة قطع سير القوافل اليهودية التي كانت تجلب المؤونة من القدس إلى المستعمرات اليهودية في منطقة المجدل، وسط القرى والمدن العربية، بحراسة الجيش البريطاني. وبعد الهدنة الأولى في تموز/يوليو 1948 عيّنه أحمد حلمي باشا، حاكم القدس العسكري، لقيادة جماعة المناضلين عن المنطقة الجنوبية في جبهة القدس. وعلى الرغم من سلبيات المنطقة عسكرياً وفقدان المواقع العسكرية، فقد استمرت المقاومة مشتعلة في المنطقة أربعة أشهر بعد الهدنة في أوضاع صعبة استبد بها الضغط اليهودي وقلت المؤن والذخيرة وأعداد المقاتلين. وكان التنسيق يتم بين قوات المجاهدين

والقوات الأردنية (بقيادة عبد الله التل) والقوات المصرية عند منطقة بيت لحم. قدم الأفريقي استقالته إلى الحاكم العسكري الجديد (بعد استقالة أحمد حلمي باشا) في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر 1948.

ويعرّف المؤلف نفسه وكتابه: "ولمّا كنت أحد قادة المجاهدين الذين قادوا معاركها في البداية حتى النهاية، حيث قمت بإدارة أربعين معركة مسجلة ضد اليهود في جبهتي غزة والقدس، رأيت من واجبي أن أسجل هذه المعارك وما يحيط بها من الأسرار وكيفية وقوعها وجريانها مع ذكر أسماء شهدائها وجرحاها وغنائمها خدمة للحقيقة والتاريخ للأجيال القادمة." والكتاب يُعدّ إحدى الوثائق العسكرية عن جانب خفي من الحرب خاص بمعارك المجاهدين وليس معارك الجيوش العربية. ويسجل صاحب الكتاب تفصيلات كل ما حدث، مع أسماء المواقع التي كانت تحتلها السرايا والمفارز المتعددة، وتوزيع القوات، والخطط المرسومة، وأسلوب إدارة القتال. كما يتناول أنواع المجاهدين وطرق تزويدهم وتجهيزهم بالأموال بالسلاح والعتاد والتقسيمات العسكرية للجبهات الفلسطينية، بعددها وأسماء قراها، وتوزيع القيادات. ويدعم كتابه بأسماء الشهداء والجرحى وفقاً لبلدانهم ومكان وقوع الحوادث.

يحاول المؤلف أن يرد في كتابه على الاتهامات بأن عرب فلسطين لم يقاتلوا وأن ردات فعلهم كانت ارتجالية، فيقول إنهم كانوا يواجهون قوى أشد وأكثر تنظيماً، كما كانوا يعانون صعوبة الحصول على السلاح. ويشيد بدور الهيئة العربية العليا في تزويد المجاهدين بالسلاح، ومحاولة تدبيره بكل الوسائل على الرغم من الصعوبات. كما يشيد بأعمال المناضلين الفلسطينيين الذين حافظوا على مواقعهم إلى حين وصول الجيوش العربية. ويخص منجزات "الجهاد المقدس" بالتقدير، ولا سيما عمليات تدمير المنشآت اليهودية. ويعبر عن خيبة أمله بدخول الجيوش العربية، ويحلل ثغرات التدخل العسكري، ويعدد الأخطاء التي ارتكبتها القيادة العسكرية العربية وأدت إلى الكارثة؛ فهي لم تستلم مواقع المجاهدين، ولم تستفد منهم، وافتقرت إلى القيادة الموحدة، واستهانت بالخصم. وكان الأفريقي تقدم بخطة عسكرية إلى الجهات المسؤولة في أثناء التدخل العربي.

ولا يبدو للكتاب أي قيمة علمية في الموضوعات الأُخرى التي لا تتناول المعارك الحربية، وخصوصاً المقدمة التاريخية التي يربط فيها بين مأساة فلسطين وأهداف بني إسرائيل القدامى منذ خروجهم من مصر، كما يربط فيها بين خلع السلطان عبد الحميد والأهداف الصهيونية. كذلك فإن الملاحظات التي أوردها في خاتمة الكتاب تبدو ساذجة، وحاول فيها أن يفسر أسباب هزيمة العرب: الاستعمار الأوروبي، ومساندة قوى العالم لليهود، وامتناع الدول العربية من تجهيز المجاهدين.

كتب الأفريقي مذكراته كيفما اتفق، ومن دون ترتيب تاريخي أحياناً. كما أن تقسيمات الكتاب غير واضحة؛ ففيها تقديم وتأخير، وجاءت عناوينه بطريقة اعتباطية. والمؤلف، على الرغم من ملاحظاته التي أوردها في خاتمة الكتاب عن تفسير أسباب الهزيمة العربية، ينتهي بنظرة متفائلة: "وأمّا ما يترتب على الشعوب العربية عمله، انتظاراً للشوط الثاني الذي لا بد من وقوعه عاجلاً أو أجلاً، الاستعداد لكسبه وسيكسبونه إذا استعدوا له. والدليل على قولي هذا هو أن الصليبيين غُلبوا على أمرهم وانسحبوا من فلسطين والسواحل السورية بعد مئة وخمس وثمانين سنة أمام صولة السلطان صلاح الدين□".

(*) أستاذة التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة دمشق.

(**)فصل من كتاب سيصدر عن مؤسسة الدراسات المقدسية سنة 2006 بعنوان "السيرة والتاريخ في بلاد الشام"، تحرير سليم تماري وعصام نصّار.

(*) مرفق بهذه الدراسة قائمة تفصيلية بعناوين المذكرات والسير الذاتية وأسماء أصحابها.

(*) يمكن الاطلاع على الدراسة الشاملة لهذه الفئات الثلاث في: "الموسوعة الفلسطينية"، القسم الثاني، المجلد الثالث (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1990)، ص 751 – 902.

المراجع

أولاً: بالعربية (إضافة إلى قائمة المذكرات والسير الذاتية موضوع الدراسة المرفقة:(

1 - خدوري، مجيد. "عرب معاصرون (أدوار القادة في السياسة)". مترجم. بيروت، 1973.

2 - زريق، قسطنطين. "نحن والتاريخ". بيروت، الطبعة الثانية، 1963.

3 - سعيد، إدوارد. "مخاطر نشر المذكرات"، "الحياة"، 29/11/1999.

4 - عباس، إحسان. "فن السيرة"، سلسلة الفنون الأدبية. بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1956.

5 - عثمان، حسن. "منهج البحث التاريخي". القاهرة، 1970.

6 - مؤسسة الدراسات الفلسطينية. "الأرشيف الوثائقي"، تقرير مقدم إلى ندوة الدراسات العليا للتاريخ الحديث (وثائق تاريخ العرب الحديث). كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1977.

ثانياً: الإنكليزية

1 -Abu Ghazaleh, Adnan. Arab Cultural Nationalism in Palestine during the British Mandate. Beirut, 1973.

2 -Carr, Edward Hallet. What is History. London, 1961.

3 -Khalidi, Tarif. "Palestinian Historiography, 1900-1984," Journal of Palestine studies, vol. X, no. 3 (Spring 1981).

4 -Kramer, Martin. "A Sampler of Biography and Self Narrative," in Middle Eastern Lives: The Practice of Biography and self-Narration. ed. M. Kramer. Syracuse, 1991.

5 -Sayigh, RoseMary. Palestinans From Peasants To Revolutionaries. London, 1970.

قائمة بعناوين المذكرات والسير الذاتية موضع الدراسة
رتبت أسماء أصحابها حسب حروف الهجاء

النشر والطباعة	الكتاب	الكاتب
د.م.: الناشر جعفر السويركي، د.ت.	"شريط الذكريات عن غزة قبل نصف قرن"	إبراهيم خليل سكيك 1920 –
نابلس: مطبعة الفرج، أبو ربيع إخوان، 1978.	"مذكرات"	إحسان النمر 1905 – 1984
بيروت: دار النهار، 1969.	"أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية"	أحمد الشقيري 1908 – 1980
بيروت: دار العودة، 1970.	"حوار وأسرار مع الملوك والرؤساء"	
بيروت: دار العودة، 1971.	"من القمة إلى الهزيمة مع الملوك والرؤساء"	
بيروت: دار العودة، 1972.	"على طريق الهزيمة، مع الملوك والرؤساء"	
بيروت: دار العودة، 1973.	"الهزيمة الكبرى مع الملوك والرؤساء" (جزآن)	
بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، 1969.	"أوراق سجين: عشرة أشهر في المعتقلات الإسرائيلية"	أسعد عبد الرحمن 1944 –
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1980.	"يوميات الحركة الوطنية الفلسطينية 1935 – 1939"	أكرم زعيتر 1909 – 1996
بيروت: دار النهار، الجزء الأول 1972؛ الجزء الثاني 1973.	"فلسطين عبر ستين عاماً"	إميل الغوري 1907 – 1984
بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث، 1973.	"مذكرات حول تاريخ الحركة العمالية"	حسني صالح الخفش 1917 – 1972
القدس: منشورات صلاح الدين، 1982.	"ستة وستون عاماً مع الحركة الوطنية الفلسطينية وفيها"	خليل البديري 1906 – 1983
القدس: المطبعة التجارية، 1955 (طبعة أولى)؛ بيروت: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1982 (طبعة ثانية).	"كذا أنا يا دنيا: يوميات خليل السكاكيني"، إعداد: هالة السكاكيني	خليل السكاكيني 1878 – 1953
بيروت: دار الاستقلال للدراسات والنشر، 1986.	"عشرون عاماً في منظمة التحرير الفلسطينية (أحاديث الذكريات 1964 – 1986)"	شفيق الحوت 1931 –
الكويت: شركة كاظمه للنشر والترجمة والتوزيع، 1979.	"فلسطيني بلا هوية (لقاءات مع الكاتب الفرنسي إريك رولو)" (نقلها إلى العربية نصير مروة)	صلاح خلف (أبو إياد) 1933 – 1991

عارف العارف 1892 - 1973	(أ) "نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود 1947 - 1952"	صيدا - بيروت: منشورات المكتبة العصرية للطباعة والنشر، 1956 - 1959.
	(ب) "أوراق عارف العارف" (12 جزءاً)	بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1973.
عبد الحميد شومان 1888 - 1974	"العصامي: سيرة عبد الحميد شومان"	بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982.
عزت طنوس 1896 - 1969	"الفلسطينيون: ماض مجيد ومستقبل باهر" (الجزء الأول)	بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1982.
عنبرة سلام الخالدي 1898 - 1986	"جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين"	بيروت: دار النهار، 1978.
عوني عبد الهادي 1882 - 1970	"أوراق خاصة"	بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، 1974.
فدوى طوقان 1917 - 2003	"رحلة جبلية، رحلة صعبة - سيرة ذاتية"	عمّان: دار الشروق للنشر والتوزيع، طبعة ثانية 1985.
فواز تركي 1940 -	*The Disinherited: Journal of a Palestinian Exile* ("المحروم: يوميات غربة فلسطينية")	New York: Monthly Review Press, 1972.
فوزي القاوقجي 1890 - 1977	(أ) "مذكرات فوزي القاوقجي 1912 - 1932"	بيروت: دار القدس، 1975.
	(ب) "فلسطين في مذكرات القاوقجي 1936 - 1938"	[بيروت:] منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث ودار القدس، 1975.
كنعان أبو خضرا 1920 - 1984	"صحافي من فلسطين يتذكر"	بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1985.
ليلى خالد 1944 -	"شعبي سيحيا (مذكرات خاطفة الطائرات) كتبها كما روتها له جورج حجار"	بيروت: دار النهار، 1973.
محمد أمين الحسيني 1897 - 1974	"صفحات من مذكرات السيد محمد أمين الحسيني"	أعداد متفرقة من مجلة "فلسطين" (منذ أواخر الستينيات حتى أواسط السبعينيات)، وهي نشرة دورية تشرف عليها الهيئة العربية العليا.

		محمد طارق الأفريقي
دمشق: دار اليقظة العربية للتأليف والنشر السورية، د.ت. (على الأغلب 1952).	″المجاهدون في معارك فلسطين 1367هـ/1948م، مذكرات عن الحرب الفلسطينية: أربعون معركة وأسماء شهدائها وجرحاها	1888 - 1955
		محمد عزة دروزة
دمشق: الجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار، والمركز الجغرافي الفلسطيني، الجزء الأول 1984؛ الجزء الثاني 1986.	″مذكرات وتسجيلات، مائة عام فلسطينية″	1887 - 1984
		محمد علي الطاهر
القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1951.	″ظلام السجن، مذكرات ومفكرات: سجين هارب، تنكر واختفى″	1896 - 1974
		معين بسيسو
بيروت: دار الفارابي، 1978.	″دفاتر فلسطينية″	1926 - 1984
		موسى العلمي
London: John Murray, 1969.	*Palestine is my Home* (″فلسطين هي وطني″). قصة موسى العلمي كما رواها لجيوفري فيرلونج	1897 - 1984
		هشام شرابي
بيروت: دار الطليعة، 1978.	″الجمر والرماد: ذكريات مثقف عربي″	1926 – 2005
		يعقوب زيادين
بيروت: دار ابن خلدون، 1980.	″البدايات، سيرة ذاتية، أربعون سنة في الحركة الوطنية الأردنية″	1924 –